مقدمة

عاش الأدب العربى فى الأندلس نحو ثمانية قرون، وتأثر بتلك البيئة التى عاش فيها ، وأثر فى بيئته وفيما جاورها من بيئات.وليست تلك القرون الطويلة بالزمن الهين فى تاريخ أدب ، وليست الأندلس ببيئتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية والسياسية ، بالشئ الذى يمكن إغفاله فى درس هذا الأدب ، وأخيراً ليس التأثير الذى كان للأدب الأندلسى فيما جاوره من آداب ، بأقل خطراً من كل ما تقدم .

ومن هنا ، وجبت العناية بدرس هذا الأدب ، وفاء بحق ما يقرب من ثمانية قرون من تاريخ الأدب العربى . ووجبت العناية بدرسه كذلك ، تقديراً لآثار إقليمية لها فاعليتها فى حياة هذا الأدب ، ثم وجبت العناية بدرسه أيضاً توضيحاً لنفحات عربية إسلامية حملت إلى بعض الآداب الأوربية أريجها العطر .

وعلى الرغم من هذا كله ، قد لقى الأدب الأندلسى كثيراً من إهمال الدارسين فى عالمنا العربى ، مع وفرة وجودة ما كتبوا عن أدب المشرق، منذ جاهليته إلى عصره الحديث، ومن مهده فى جزيرة العرب إلى أقاليمه المختلفة، فى العراق والشام ومصر . وقد يكون إعراض بعض هؤلاء عن درس الأدب الأندلسى ، بحجة أنه لم يأت بجديد ، وأنه ليس إلا صورة للأدب المشرقى أو محاكاة له . ولكننا إذا سلمنا جدلا بهذا الحكم — مع أنه غير صحيح — فمن حقنا أن نسأل : هل يشترط لدراسة أدب إقليم أو عصر ، أن يكون مغايراً تماماً لأدب أى إقليم أو عصر آخر ؟ أو ليس على أى حال أدباً يستحق الدرس بصرف النظر عن مغايرته أو مماثلته لغيره ؟ ثم أليس الدرس وحده هو الذى سيوضح لنا لماذا

جاء هذا الأدب دون جديد ، أو لماذا جاء على صورة غيره أو محاكياً له ، إن صح أن ذلك له حظ من الصحة ؟

وليس معنى ذلك أن أقلام الباحثين فى عالمنا العربى قد ولت ظهورها تماماً لهذا الميدان ؛ فالحق أن أقلاماً قد خاضته فى جرأة ، فأبلى بعضها وأخفق بعضها . وعلى أية حال فأغلب الدراسات التى أرخت لأدب الأندلس . قد جاءت دراسات إما موجزة وإما ناقصة وإما أقرب إلى موضوعات الإنشاء .

والسبب فى الإيجاز رغبة بعض الباحثين ، فى التأريخ للأدب الأندلسى كله فى كتاب واحد . ومن هنا تغفل حقائق كثيرة . وتتوارى أمور كانت بحاجة إلى الظهور .

أما السبب فى النقص ، فاعتقاد بعض الدارسين خطأ أن الأدب الأندلسى ليس إلا أدباً عباسياً يجب أن يدرس فى عصر بنى العباس ، ومن ثم يكتفى بالأمور العائمة على السطح . حيث يتحدث عن الطبيعة ومجالس اللهو أو شئ يقرب من ذلك ، ثم يترجم لنفر من الشعراء ، وربما يضاف إليهم نفر من الناثرين ، وهكذا يظن أن ذلك تأريخ للأدب الأندلسى .

أما أسوأ ما يكتب عن هذا الأدب فهو الصنف الأخير من هذه الأصناف ، وهو صنف موضوعات الإنشاء . وقد لجأ إليه بعض من تصدوا للتأريخ للأدب الأندلسى ، متوهمين أنه متى ذكر النسيم والورد والجدول والنبع ، ومتى حشرت ألفاظ الرقة والعذوبة والترقرق والسلاسة ؛ كان هذا حديثاً عن أدب الأندلس !!

وربما كان المستشرقون — إلى اليوم — أقرب إلى المنهج وأكثر اعتماداً على الحقائق ، فيما كتبوه عن الأدب الأندلسى . ومع ذلك فتأريخهم له — برغم منهجيته وحقائقه — لايزال يتسم بالإجمال والاقتضاب والسرعة . ولهذا أمكن القول بأنه إلى اليوم ، لم يظهر

تاريخ منهجى مفصل للأدب الأندلسى .

ولقد شاء الله أن أتخصص فى هذا الفرع من فروع الأدب العربى ، وأن تكون دراساتى العليا وقفاً عليه ، وأن يكون مقر هذه الدراسات هو « إسبانيا » موطن هذا الأدب حيث نشأ وتطور ، وحيث تنال دراسته عناية كبيرة . كذلك شاء الله أن يرتبط عملى الجامعى بهذا الفرع من فروع المعرفة ؛ إذ أسند إلى تدريس الأدب الأندلسى فى كلية دار العلوم ، منذ سنة ١٩٥٥ .

ولهذا كله رأيت أن أضطلع بدراسة منهجية مفصلة للأدب الأندلسى ، أتناوله فيها منذ دخول المسلمين إلى إسبانيا ، وأتتبعه خلال عصورهم المختلفة فيها ، وأحدد ما قد يكون له من اتجاهات فنية ، وأبحث عما قد يغذيه من روافد مشرقية ، وأكشف عما قد يخالطه من منابع مغربية . كل ذلك مع الترجمة لمشاهيره والتعريف بروائعه ، ثم رسم خصائصه وتحديد معالمه ، وبيان صلته بالآداب الأوربية التى جاورته أو اتصلت به .

وقد عزمت على أن تتم هذه الدراسة مسترشدة — ما أمكن — بالعصور المميزة فى تاريخ الأندلس . حيث أخرج كتاباً عن « الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة » ثم آخر عن « الأدب الأندلسى فى عصر الطوائف » ثم ثالثاً عن « الأدب الأندلسى فى عهدى المرابطين والموحدين » ثم رابعاً عن « الأدب الأندلسى فى العهد الغرناطى » ثم خامساً عن « خصائص الأدب الأندلسى وتأثيره فى الآداب الأخرى » .

ويلاحظ أنى سأقرب فى تقسيمى للعصور الأدبية الأندلسية من التقسيم السياسى التاريخى لهذا الإقليم . ولست أجهل أن ذلك التقسيم غير دقيق ، ولست أجهل أيضاً أن الأدب لا يتغير بمجرد قيام دولة وسقوط أخرى ، ولكنى قربت من هذا التقسيم لتحديد معالم الطريق أولا ، ولارتباط الأدب العربى بالدول والسياسات ثانياً . على أنى — كما سيرى — لن ألتزم بالتقسيم الذى سار عليه المؤرخون ، وسوف أختار أنسب التقسيمات

وأقربها إلى التأثير فى الأدب . لهذا سأتناول فى هذا الكتاب الأول تاريخ الأندلس الأدبى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، مع كون هذه الحقبة من تاريخ الأندلس تمثل عصرين مختلفين : العصر الأول هو ما يسمى بعصر الولاة ، وهو الذى يبدأ بالفتح الإسلامى ، وينتهى بإقامة عبد الرحمن الداخل لدولة بنى أمية فى الأندلس . أما العصر الثانى فهو ما يسمى بعصر بنى أمية ، وهو الذى يبدأ بقيام عبد الرحمن الداخل بالأمر ، وينتهى بسقوط الخلافة الأموية فى الأندلس ، وقيام الحكم الجمهورى فى قرطبة على يد ابن جهور .

وإنما جمعت هذين العصرين فى دراسة ، لأن الأول منهما ليس إلا كمقدمة للثانى . وإنما وقفت عند سقوط الخلافة ، لأن سقوطها يقيم دولة جديدة لها خصائصها السياسية والاجتماعية والثقافية ، التى من شأنها أن تنتج أدباً ربما غاير الأدب السابق بعض المغايرة .

ولعدم التزامى للتقسيم السياسى المعروف ، ولكونى أنظر إلى الدول وسياساتها كمؤثر فقط من المؤثرات الكثيرة التى تصيب الأدب ؛ رأيت أن العصر الأموى طويل ، وقد اختلفت أحوال الأندلس فيه اختلافاً ليس باليسير . وكان هذا الاختلاف يحدث بين فترة وأخرى من فترات هذا العصر الأموى ، فيمس النواحى السياسية والثقافية والاجتماعية جميعاً . من أجل هذا رأيت أن أقسم هذا العصر الأموى إلى فتراته المميزة المختلفة ، حسب الأدوار التى مر بها إبان هذا التاريخ الطويل . وعلى هذا قسمته إلى تلك الفترات : فترة تأسيس الإمارة ، وفترة صراع الإمارة ، وفترة الخلافة ، وفترة الحجابة ، وأخيراً فترة الفتنة . وقد جعلت لكل فترة من تلك الفترات فصلا . فإذا تذكرنا أنه سيسبقها فصل عن فترة الولاة ؛ تبين أن فصول هذا الكتاب الأول ستكون ستة ، كل فصل منها سيتناول تاريخ أدب فترة مميزة .

ولما كان الأدب — كنشاط إنسانى فنى — متأثراً لا محالة بما يحيط به من ظروف

سياسية واجتماعية وثقافية ؛ رأيت أن أصور كل فترة أولا من النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية ما أمكن ، ثم أتبع ذلك بالحديث عن الأدب كنتيجة أو كظاهرة متأثرة بكل ما سبق .

وقبل أن أشرع فى تلك الفصول الستة التى تتحدث عن تاريخ أدب الأندلس إلى سقوط الخلافة ، سأمهد بتحليل «اسم الأندلس» ثم بإيراد «لمحة جغرافية» تصور طبيعة هذه البلاد ، ثم أتبع ذلك بعرض تاريخى سريع «لإسبانيا قبل المسلمين» ثم «للمسلمين فى إسبانيا» ، ثم أختتم هذا التمهيد بتصوير «المجتمع الأندلسى» من حيث عناصره البشرية وديناناته ولغاته وشخصيته ؛ ليكون ذلك بمثابة المدخل لهذا التاريخ المبسط للأدب الأندلسى ، الذى أرجو أن أضطلع به ، ثم ليقبل القارئ على هذا البحث الأدبى وبين يديه ما يلقى واو بعض الضوء ، على ما قد يكون بين السطور من غموض .

وقبل أن أختم هذه المقدمة أنبه إلى أن بعض المشتغلين بالدراسات الأندلسية ، يرى عدم جدوى التاريخ العام للأدب الأندلسى فى الوقت الحاضر ؛ وذلك لقلة النصوص ، وخاصة ما يتصل منها بالفترات الأولى لتاريخ المسلمين فى الأندلس . وهم يرون الاكتفاء بالأبحاث الجزئية التى تتناول موضوعاً خاصاً ، أو ظاهرة معينة ، أو أديباً بارزاً أو كاتباً كبيراً ، ونحو ذلك . والحق أن النصوص التى يعتمد عليها دارس تاريخ أدب الأندلس قليلة نسبياً ، وعلى الأخص تلك التى تتصل بالفترات الأولى من تاريخ الأندلس ؛ وذلك لكثرة ما ضاع من تراث المسلمين فى تلك البلاد ، بل لكثرة ما أتت عليه أيدى الإتلاف والإبادة من المسيحيين والمسلمين على السواء . لكن كل ذلك — فى رأيى — لا يصح أن يكون حائلا دون عمل تاريخ منهجى للأدب الأندلسى ؛ فقلة النصوص وعدم وفرة المواد ، لا يصح أن توقف العلماء عن البحث فى أدبهم بحثاً تاريخياً عاماً ، يعتمد فيه على الموجود من النصوص ، ولا يعطى الحكم الأخير فى مسألة من المسائل

التى تقل أسانيدها أو لا تتوافر أدلتها . إننا لو تركنا التأريخ للأدب الأندلسى حتى تكتشف كل النصوص المخطوطة والمدفونة ، وحتى يعثر على الضائع منها ويجمع المتفرق ؛ فلن نؤرخ لهذا الأدب أبداً ؛ لأن شيئاً من تلك النصوص سيظل دفيناً أو ضائعاً أو مفوقاً حتماً .

ولو انتظر من قد أرخوا لأدب المشرق حتى تظهر كل نصوصه لما كتبوا شيئاً عن تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أو الإسلام . إن الواجب أن ندرس ما بين أيدينا ونؤرخ على أساسه ، على أن نعتبر ذلك خطوة يجب أن تليها خطوات ، ويجب أن نستفيد فى كل خطوة من كل مخطوط ينشر ، ومن كل نص يعرف ، ومن كل بحث خاص يقدم ، وسبيلنا إلى ذلك أن نبحث عن النصوص دائماً ، نحققها وننشرها ثم نعتمد عليها فيما نكتب من تاريخ أدب . وهكذا يأتى كل بحث فى هذا التاريخ الأدبى أوفى وأكمل وأشمل من سابقه ، بل تأتى كل طبعة من طبعات التاريخ الواحد أكثر حقائق ، وأصح أدلة ، وأصدق أحكاماً .

وعلى هذا مضيت فى هذا العمل برغم ما يتطلبه من جهد مضن ، وتنقيب متصل وبحث صابر .

وقد سألت الله : أن يجعل هذا العمل خالصاً له ، وأن يعين عليه ، وأن ينفع به .

المؤلف

القاهرة ١ ربيع الأول سنة ١٣٧٨
١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٨